العلم والفلسفة والعالم المحسوس

بقلم جان فال — ترجمة مجاهد عبد المنعم مجاهد

ما قيمة العلم*؟ قبل ان نجيب على هذا السؤال ، يجب ان نعطي هذين الحدين « قيمة » و « علم » شيئاً اكثر تحديداً . « بالعلم » نفهم خاصة الفيزيقيا حيث ان الرياضة اداتها ولغتها ، ومن ثم فالرياضة تعتبر كمنهج للعلم اكثر من كونها علماً في ذاته ، واما بالنسبة للعلوم الاجتماعية ، فسوف نخرجها من اعتبارنا هنا .

بالعلم ، يحاول الانسان ان يوضح كيف تحدث الاشياء ، ما هو الايضاح ؟

ان فكرة الايضاح – منذ ايام الاغريق القدماء – قد ارتبطت بفكرة السبب او العلة . ومما هو جدير بالملاحظة في هذه الرابطة ، ان فكرة الايضاح تتضمن نوعاً من الكشف ، ومن الظاهرة يستخرج الانسان – بمعنى معين – علتها .

وكما اشرنا من قبل في الفصل عن العلية[1] فان فكرة العلية قد حل محلها فكرة الوظيفة والعلاقة ، ومن الحقيقي ان بعض الدارسين لمنطق العلم ، وقد تبعوا ميرسون Meyerson ، قد قالوا بان العلم اساساً هو اتباع الوحدة والتماثل ، ولكي نتأكد ، فان الذهن البشري قد ارتضى ارتضاء معيناً اكتشاف التماثلات ومع هذا فالعلم هو مطلب للعلاقات اكثر منه مطلباً للتماثلات ، ان غرض العلم هو ان يشيد شبكة من العلاقات اكثر من ايجاد اساس مميز وراء كل شيء .

اما عن فكرة القيمة ، فقد تصورت بطرق عدة . هناك تكثر كبير للقيم . وللعلم قيمة من الانسجام والجمال اللذين اصر عليهما بوانكاريه وهما متمثلان حتى في التأملات الفيثاغورية القديمة ، هناك جمال رائع في بعض الفروض العلمية ، ومع هذا فيجب الا ننسى الحملة التي شنها « كيتس » Keats على العلم ولا لعنات بليك Blake : لقد حطم نيوتن جمال قوس قزح ، وحطم يورزن Urizen وحدة الاشياء .

ومن ركيزة النفعية ، يمكن ان يسمح لنا بان نأمل في ان مزايا العلم تفوق مضاره ، وعندما بدأ العلم الحديث ، ركز بيكون وديكارت تأكيداً عظيماً على نفعيته ، بينما آخرون مثل مالبرانش وسبينوزا ، واخيرا بوانكاريه ، قد قالوا بان اهمية العلم لا تقوم غالبا في نفعيته كما في قيمته الذاتية . وهكذا تتأدى الى تحديد ممكن ثالث لقيمته . فطبقاً لسقراط وافلاطون فان للعلم قيمة في نفسه . لقد مجد افلاطون العلم بانه تأمل محض في تعارض مع العالم الذي يمكن ان يساعد في تعليمنا كيف نعزف الالات الموسيقية او نعد النجوم . لقد اراد لنا ان ندرس العلم لا لنحصل على حقائق فيزيقية ، ولكن على حقائق ميتافيزيقية . ويمكن ان نعارض هذا الرأي لافلاطون برأي ابيقور الذي آمن بان المعرفة النافعة هي الشرعية ، بل حتى رأي افلاطون نفسه عندما عبر عن الرغبة في ان يقيم كل تمرس انساني على المعرفة او العلم .

ان تنوع هذه الآراء يؤدي بنا الى التساؤل عن قيمة العلم من وجهة نظر الحقيقة . ان افلاطون يلوم العلوم الجزئية بتعلقها الوثيق بما هو جزئي . وارسطو – على العكس – يلوم الرياضيين لانهم تجريديون جداً في بعض تأملاتهم . ولقد اشار بسكال الى ان مباديء العلم وفروضه غير محددة ولا يمكن البرهنة عليها . ولقد بين « كانت » نجاح العلم عندما وصف نسيج الذهن البشري . وقد اكد كونت فكرة العلاقة ، علاقة العلم بالذهن البشري ، وعلاقة الاشياء بعضها بالبعض . ولكن نقد العلوم التي تطورت قرب نهاية القرن التاسع عشر عند ماخ ، وبيرسون وبوانكاريه وميلهود ولوروى ودوهم والتي استمرت عند دنجتون وهويتد ودي برولي قد وضعت نظريات كونت وكانت موضع التساؤل . ولقد توضح اولا للرياضة ثم للفيزيقيا ان اختلاف الفروض ممكن ، وانه عن طريق التجربة يشيد العلم مذاهب مغلقة لكي يكتشف القوانين المحكمة . وقد اوعز ان هذه القوانين يمكن ان تكون منتوجات بلا انتظامات دون ما قانون ، والتي تعوض الواحدة الاخرى بميزة عدم تعقدها اللامنتظم الخالص . وقد ابانت اكثر الاكتشافات الحديثة ان الانسان لا يستطيع ان يجعل وصف بعض خصائص الاجسام المتحركة اكثر انضباطاً دون ان يضر بانضباطية قياس صفات اخرى . وهذا يعرف بمبدأ هيزنبرج للاتحددية Indetermindey .

ودعنا ندخل في اعتبارنا حينئذ اهمية العلم في تطوير الفلسفة . ان تاريخ العلم مرتبط بتاريخ الفلسفة . وعلينا ان نرجع فحسب الى محاورة « مينو » ومحاورة « تيتيت » Theaetetus لنرى ان اكتشاف بعض حقائق الرياضة لدى الفيثاغوريين ، كان اصلاً من اصول نظرية افلاطون في المثل Edeas وكذلك الازمة التي مهد لها اكتشاف الاعداد اللاعقلانية Irrational كانت – احتماليا – سببا من الاسباب لتحولات افلاطون العميقة الاخيرة في هذه النظرية . وعلم جاليليو ومعاصريه كان اساسا من اسس فلسفة ديكارت . وبان مذهب ليبنتز لا يمكن ان يفهم اذا لم يدخل الانسان في حسابه حساب التفاضل differential calculus ، ودون تأثير نيوتن لا نستطيع ان نفهم محاولة هيوم في اكتشاف شيء في مجال الذهن مشابه للجاذبية في مجال الجسم ، ولا محاولة « كانت » لايجاد اساس عقلي لاكتشافات نيوتن . ولكن من تخطيط تاريخ تأثير العلم على تطور الفلسفة ، يجب ان نعلم حقيقة واحدة تجعل ما حدث في القرن التاسع عشر والقرن العشرين يختلف عما حدث من قبل . فالعلم اصبح حينئذ نقديا لنفسه .. انما كسويل لم يستخدم فحسب الفروض المتصارعة ولكن علم انها متصارعة . وكان هذا

---

* Science , Philosophy and the Sensible World هو الفصل الحادي عشر من كتاب جان فال The Philosopher's Way والكتاب طبع عام ١٩٤٨ في University Press—Nwo York Oxford .

١ يراجع الفصل الخاص بالعلية وهو الفصل السابع (١٠٦-١٢٢ص) [المترجم] .

فحسب بدء التيار الذي كان له شموله في النظريات الحديثة التي ذكرناها ، وبه لا يمكن للعلم ان يوصف بانه انضباط تام لكل الحقيقة ، ولكن دائماً عليه ان يختار بين – على سبيل المثال – التحديد المحكم لسرعة التحرك velocity وبين التحديد المحكم للموضع Position ، لانه لا يمكن الحصول عليهما معاً . واكثر من هذا الآن ، اكثر مما كان في زمن ماكسويل ، فان الفروض المتناقضة Contradictory تستخدم وتعلن على انها متممة الواحد للآخر . ومن ثم فعندما ينقد الفلاسفة اليوم العلم ، فان هذا النقد ليس بالضرورة تعبيراً عن تفضيلهم للاعقلانية Irrationality انه اساساً اخلاص للروح الخالصة للعلم ، التي تهدف في الانضباط الاقصى الى ان تعرف في نفس الوقت ان بعض النقاط ، وهي الانضباط الاقصى ، لا يمكن الحصول عليها .

واحياناً استخدمت نتائج العلم لكي تؤكد افكاراً فلسفية معينة ، او بالاحرى لتؤكد انكارها ونبذها ، ومن ثم فالنظرية الكانتية في المكان – من الواضح – قد دحضتها الهندسات اللا اقليدية non euclidedn ، والحقيقة المطلقة لمبدأ العلية يبدو انها وضعت موضع التساؤل من قبل الفيزيقا الحديثة . ومن ثم فنحن نسلم بقيمة الفلسفة على اساس نتائج العلم ولكن يجب ان لا ننسى ان هذه النتائج يجب ان تؤول على اساس حالة سالبة اكثر من كونها حالة وضعية positive وزيادة على ذلك فان مبدأ هيزنبرج للاتحددية ، بالرغم من انه يعنى التخلى عن مبدأ الحتمية التامة ، لا يجب ان يفسر على انه يتضمن ان الحرية موجودة .

ان مشكلة افلاطون هي – في جزء منها على الاقل – كيف يمكن ان يكون العلم الرياضي ممكنا ، والحل الذي قدمه كان مطلع نظرية المثل ، ثم نظرية العالم على انه مشيد بفعل الحد Limit على ما لا حد له Unlimited ، واخيراً ايضاً نظرية الاعداد . بهذه النظريات حاول ان يحل مشكلة تشييد علم فيزيقي – على الاقل العلم غير الكامل في عصره – . وكان على ديكارت ان يواجه نفس المشكلة ، ولكن في حدود اكثر اضاءة واكثر تميزاً ، وكانت اجابته – كما رأينا – ان الامتداد فكرة واضحة ومتميزة . و « كانت » ايضاً كان عليه ان يشتغل بنفس المشكلة ولكن وقد جعله التطور المتخلل للفيزيقا النيوتونية Newtonian physics اكثر انضباطاً واكثر تعقداً ، كانت اجابته هي نظرية عن القوالب Forms والمقولات Categories. والآن ، بعد انيشتين وبلانك وبور وهيزنبرج ، اصبحت المشكلة لا ان نرى فحسب كيف يمكن ان يكون العلم ممكنا ، ولكن كيف ان هذا العلم لا يمكن ان يتعدى حدودا معينة . علينا ان نتقبل العالم على انه منقاد وفي نفس الوقت على انه مقاوم في نقطة ما للتأويل العلمي . ان العلم يكرهنا على ان نرى هذه الصنعة المزدوجة للعالم ، انقياده للعقل ، وتفلته الوقتي – على الاقل – للتحديدية التامة العقلية .

ومع هذا ، فالعلم يعطينا شيئاً من القيمة للاشياء ، بالرغم من انه يمكن تسميته فحسب بأنه بناؤها الادنى infra - structure او الهيكل ، ومن ثم فالعلم ، الذي هو نوع من البناء الفوقي Superstructure للذهن ، يكشف لنا – كما قلنا من قبل – عن البناء الادنى لما هو حقيقي .

ولكن ، كما لاحظنا من قبل ، فان العلم في القرنين التاسع عشر والعشرين يكشف عن اللاتحدديات Indeterminacies ويلغي – بتبادل المصادفات في الحقيقة نفسها ، ورأينا ان هذا البناء الادنى ليس محدداً هكذا وجامداً كما تصور من قبل . وتأكد اننا موجودون في حضور هيكل ، ولكنه هيكل لين متحرك كما هو حقا .

ومع ذلك ، حتى اذا ادخلنا في اعتبارنا هذا التحفظ الاخير ، فيجب ان نضيف انه كلما توغلنا في الحياة ، كلما قلت الاشياء شكا من جهة الوصف بالفاظ منضبطة علمية – وهي حقيقة عرضها للضوء من قبل كورنو واكدها بوترو ووراد وبرجسون .

وعندما يلاحظ العالم الاشياء، فانه يفهم ركيزة لا انسانية non human ومن ثم فان حقيقة العلم يمكن ان يقال بانها حقيقة لمخلوق صغير بالنسبة لحواسه ، او في حالات خاصة هو اكثر تفوقاً منا جميعا . هذه الملاحظة تفضي الى ذكر حقيقة العالم المحسوس ، حيث انه العالم الذي – في مستواه – نحن متموضعون Are situated .

وما قلناه لا يكون نقدا للعلم . ولكنه يحدد موضعه ، يجب ان نضع في اذهاننا انه اذا كان هناك اعتقاد خالص بدئي في ان العلم خطر ، فان ما هو اكثر خطورة هو ان يمهد النقد غير المميز في العلوم للعقائد الخرافية .

***

غالباً ما تصورت الفلسفة على انها جهد من جانب الانسان ليحرر نفسه مما هو محسوس ، ولكن ربما تصورت ايضاً على انها جهد انساني ليحرر الانسان نفسه من هذه التحررية liberation الخالصة ، التي يمكن ان تكون ظاهرة ، وكانت غالباً مقيدة في « البحيرة المتجمدة » للمثالية .

ودعنا باختصار نذكر التحررية من المحسوس التي اكدها بارمنيوس وافلاطون وديمقريطس وديكارت . كل هؤلاء الفلاسفة قد نقدوا نظرتنا العادية للعالم واحلوا محله اولاً « الواحد » the one ثم المثل Ideas ثم الذرات ثم الامتداد .

ولكن كان هناك فلاسفة قد اعترضوا دائماً ضد إقصاء المحسوس ، فارسطو مثلاً قد ذكر ضد افلاطون الحقيقة المركبة من الهيولى matter والصورة Form ، وذكر ليبنتز ضد ديكارت ان الامتداد ليس بكاف لتحديد مفهوم الجسم وانه يجب اضافة مفهوم القوة . وضد تأملات العلم ذكر بركلي Berkeley مباشرة الحس المشترك Common sense ، ومن ثم حتى عند فيلسوفين عقليين « ومثاليين » – ارسطو وليبنتز – نستطيع ان نلمح مبادىء الواقعية الفلسفية . يمكننا ان نجد حتى ايحاءات بالواقعية في النظرية المثالية لكانت ، لانه عندما قال بان المظاهر Apparances تفترض الاشياء التي تظهر ، وعندما ذكر اننا لا يمكن ان يكون عندنا وعي بأنفسنا اذا لم يكن عندنا وعي اولاً بالعالم الخارجي ، فقد وضع اسس النظرية الواقعية . وريد Reid في تعارضه مع المثالية قال بان عندنا حدساً ntuition مباشراً ، وفي الحقيقة هو نوع من الحدس السحري بالعالم الخارجي . ومين دي بيران عندما اكد انه في شعورنا الخالص بالجهد ، فاننا نصل الى التصاق بالعالم الخارجي المقاوم ،

وبهذا فانه قد اوعز - وان كان بطريقة مغايرة - بتطور واقعية جديدة .

هذه الواقعية قد وجدت صيغة من صيغهـــا في كلمات برجسون . في بدء فصل « المادة والذاكرة » يضعنا في غمار الصور ويؤكد ان رؤية شيء ، هي وضع انفسنا في الشيء ، ومن ثم فهو يعطي شكلاً جديداً لاحساسنا بحايثة الادراك الحسي immanence of perception ويمكننا ان نجد افكاراً مماثلة عند جيمس وعند الواقعيين المحدثين Neo-realists وفي الواحدية المعتدلة neutral monism عند برتراند رسل لانهم يقولون جميعاً بان الشيء الذي لدينا فكرة عنه ، والفكرة التي لدينا شيء بها، هما في الحقيقة شيء واحد وهما نفس الحد مصوراً فحسب بنصوص مختلفة .

ان نظريتهم قد اقيمت - كما رأينا - على تأكيد ان بعض العلاقات يمكن ان تتداخل دون ان يحدث اي تغيير في الحدود التي تقوم بينها ، وان هذه المعرفة هي مثل هذه العلاقة . ولكن الى هذه النظرية في استقلال الحدود بالنظر الى علاقاتها ، اضـــاف فلاسفة مثل الكسندر وهويتهود اطروحة Thesis مناقضة اخرى على ما يبدو. فهويتهد على وجه الخصوص تصور المعرفة على انها علاقة لاتسمح للحدود ان تظل دونما تأثر ، ومرة آخرى نرى هنا ديالتيك Dialectics الواقعية ، التي يمكن ان ترى ايضاً في ان الواقعية المحدثة New realism قد واكبتها الواقعية النقدية Critical Realism.

ويمكن ان نجد شكلاً آخر للواقعية عند الفلاسفة الروس لوسكي وفرانك. ان واقعيتهم واقعية صوفية وسحرية ، مقامة على شعور بوحدة العالم .

وضد هذه الواقعية الصوفية ، الواقعية المـــادية realism materialism عند لينين في مؤلفه ضد النقدية التجريبية Empirio Criticism ، فان لينين واقعي اكثر منه مادياً وان خصمه اللدود هو بركلي.

وواقعية نيقولا هرتمان قد تأثرت بفلسفة هوسرل وايضاً ببعض افكار « فرانك » ، فطبقا لنظرية الفينومونولوجية Phenomenology يذكر هرتمان انه عندما تكون هناك معرفة فانه يوجد شيء خـــارجي Transcendant هو موضوع المعرفة .

وان واقعية هيدجر اذا امكن ان تسمى بالفلسفة الواقعية - (وربما تساءل المرء عن مثل هذه التسمية) قد دوت مع فكرته عن « الوجود - في - العالم » Being In - the - world وهنا لانعود نجد التمييز الكلاسيكي بين الذات والموضوع الموجود تقريباً في كل فلسفة من الفلسفـــات الواقعية ، التي ذكرناها ماخلا بركلي وبرجسون .

ولكي نكمل هذا السرد للفلاسفة الواقعيين، يمكن ان نذكر الواقعية القومية Thomistic Realism عند جيلسون وماريتان في فرنسا ، والواقعية البنائية Structural realism عند روير وفلسفة هذا الاخير تشابه فلسفة الكسندر ، والركيزة المهمة التي يجب ان تؤكد هي انه لدى فلاسفة مختلفين مثل برجسون او رسل او لوسكي او لينـــين او الكسندر اوهيدجر اوهارتمان ، يبزغ مظهر جديد للواقعية .

***

الخطوط الجوية الفرنسية

هي الشركة ذات الإختصاص على الخطوط البعيدة المدى

الوكلاء العامون : الخطوط الجوية اللبنانية باب ادريس - تلفون ٢١٢٤٠ - ٢٠٢٢٢ ب ٢٠٢٣٠

ماذا تعني حدود مشكلة حقيقة العالم المحسوس؟ هل هو تساؤل عن الحقيقة المحسوسة للعالم الحسي ؟ ام عن الحقيقة المتعلقة للعالم الحسي؟ من الواضح انه اذا نحن قصدنا فحسب الامر الاول فيمكننا ان ندلي باجابة مؤكدة للسؤال ما اذا كان العالم المحسوس حقيقياً. هناك مستويات مختلفة للحقيقة ، وفي المستوى الحسي يكون العالم الحسي حقيقياً ، فمثلاً بعض الخطوط السوداء على ورقة بيضاء يمكن ان تظهر لذبابة على انها سلسلة جبال ووديان ، ولطفل مثل مقاطع كي تنطق ، ولقارىء راشد كجزء من جملة. كل مظهر من هذه المظاهر حقيقي في مستواه وبالمثل ، فاللون الاحمر هو في مستوى واحد للحقيقة كمية من الاهتزازات ولكن في مستوى آخر فهو ايضاً هذا اللون الاحمر الذي لا يتحلل Unanalized هنا والآن .

وفي نظام الحقيقة ، فان الاهتزازات توضع في مستوى اكثر انخفاضاً من الادراكات الحسية perceptions ، بينما في نظام المعرفة ، فان الاهتزازت توضع في مستوى اعلى لانها اكثر صعوبة من ان تعرف . والعلم كما لاحظنا هو استيعاب الحقيقة الحسية الادنى infra - perceptual Reality عن طريق المعرفة المدركة حسياً الاسمى Supra - structural

وزيادة على ذلك ، يجب ان يلاحظ ان العالم المحسوس هو عالمنا ، والمشكلة هي : اذا لم أكن هنا ، فهل يمكن ان يوجد مثل هذا العالم المحسوس ، ولكن أن نحاول الاجابة عن هذا السؤال، هو ان نحاول ان نستخرج من علاقة المعرفة حداً واحداً جوهرياً لها ، وهذا يشبه التساؤل عما يصير اليه ما هو معطى اذا اختفى الشخص المعطي له . لا يمكننا ان ندلي باجابة عن مثل هذا السؤال ، ولكن - لهذا - لسنا مضطرين الى استنتاج ان المثالية حقة ، هذا الموقف هو ما أسماه بيري Perry « المأزق الانحصاري» egocentric predicament

ان التأملات السالفة مبنية على فكرة تداخلية الحدود في العلاقات . ولكن الآن ، علينا ان نبدأ من وضع آخر - هو الذي ادخله راسل في اعتباره ، وجيمس في بعض قطعه ، وبيري على انه جوهري للواقعية - وهو ان نبدأ من القول بأن الحدود ينظر اليها على انها خارجية بالنسبة لعلاقاتها، فمن المأزق الانحصاري لا نتأدى لا الى المثالية كما لاحظ بيري ، ولا الى الواقعية . ولكن يمكن ان نتأدى الى تقبل امكانية الواقعية اذا اعتقدنا في استقلال الحدود بالنظر الى علاقاتها .

ولكي نؤكد لا امكانية المعرفة فحسب ، ولكن حقيقتها فيجب ان نتأكد انه في حالة المعرفة فان الحدود مستقلة .

ومن الحق انه كلما كانت معرفتنا بالعالم الخارجي اوسع ، كلما دفعتنا ومالت بنا الى انكار هذه الخارجية externality ، لاننا نرى اكثر فأكثر تداخل العلاقة interconnection لكل حد من العالم بكل حد آخر .

وهكذا ، اذا كانت حالة نظريات المعرفة - على الاقل النظريات الواقعية - تؤدي بنا لتأكيد مبدأ الخارجية ، فان حالة الفيزيقا تؤدي بنا اكثر لقبول مبدأ الداخلية internality ، وهذا سبب من الاسباب - احتمالياً - لماذا قد تأكد المبدأ الاخير بتأكد كبير من أعمال هويتهد .

ومن المحتمل ، اننا يجب ان نعترف بالوجود المشترك coexistence لهذين المبدأين في حالة غامضة بالنسبة لنا .

ومن الملاحظ ان النظريتين اللتين حاولنا ان نختبرهما - نظرية مبنية على الداخلية ، والاخرى على الخارجية ، الاولى نظرية الباطنية immanence والاخرى نظرية البرانية transcendence - ينتهيان الى انكار الثنائية. ان الاولى تؤدي بنا الى واحدية نوعية qualitive monism المبنية من heteromorphous data - عالم هويتهد واحياناً عالم جيمس ، والنظرية الاخرى تؤدي بنا الى نوع من الواحدية المحايدة neutral monism كما نجدها مثلاً عند بيري وعند هولت واحياناً عند جيمس وفي نظرية برجسون عن الصور. وقد حاول الكسندر عن طريق نظريته في الانبثاق ، ان يوفق بين وجهات نظر الداخلية والخارجية ولكن - دون ان يلجأ الى مثل هذه الوسيلة ، فقد تقبل جيمس وهوتهد - في الحقيقة في نظريتهما كلا من هذه الوجهات المختلفة للنظر.

وفي فلسفة بركل نفس الانكار للثنائية التي نجدها عند اكثر الفلاسفة المحدثين ، فقد ارجعوا بالضرورة تأكيد الله لان الافكار بالنسبة له هي دائماً في الذهن . ولكن في معظم هذه النظريات الحديثة ، تخلت فكرة النفس عن مكانها الاقصى pre — eminent . وكما لاحظ جيمس . فان الوعي قد انقطع عن ان يكون مهيأ كذاتية . وفي الحقيقة لم يعد يتصور على انه ذاتية على الاطلاق، ولكن اكثر على انه علاقة .

ولا يجب ان نتصور ان الواقعية مذهب سهل ، ودائماً هناك تقسيم بين نظرية المحايثة ونظرية البرانية فليس بينهما توازن قوي ، والواقعية تنتقل من مظهر الحقيقة الى المظهر

الآخر . ولكن هذا بسبب انها تريد ان تكون مصيبة لما هو حقيقي، ولانه ليس هناك سبب لماذا يجب ان تعبر خططنا العلاقية عن الحقيقة تماماً او تستنفد غناها . ولذا فاحياناً تؤكد الواقعية قصدية intentionality ما في نفوسنا ، موجهة نفسها تجاه الاشياء ، ومؤكدة احيانا هوية identity الاشياء وما في نفوسنا .

وحتى اذا وجب على العلم في يوم ما ان ينجح في ان يجعلنا نفهم تماماً ميكانيزم الادراك الحسي فيمكننا ان نتساءل ما اذا كان سيجلو لنا السر الى الابد .

هناك سر ، ولكن هل هناك حقاً مشكلة ؟ من اللحظة التي نضع فيها المشكلة تبدو ولا حل لها ولكن اذا نحن ادخلنا في اعتبارنا عالم ما هو قبلي على المشكلات والذي نوجد فيه بدئياً ، والذي نعتقد فيه بوجود العالم الخارجي ، والذي عندنا فيه هذه الحقيقة الحيوانية التي تكلم عنها سانتايانا من ان حس الوجود مغروس في الاشياء ، والذي هو في نفس الوقت معرفة بالاشياء — فاننا نرى ان المعرفة كمقاسمة في الاتحاد مع العالم حقيقة ، وان الانسان يتميز بهذه المقاسمة الخالصة للاتحاد .

***

لقد كان هناك ضعف في الانماط الكلاسية للتجريبية والواقعية : لقد تركوا المثالية ميزة الفكر الراقي الصعب . ولكن في الحقيقة ، فان التجريبية والواقعية قادرتان ايضا على الاشكال الميتافيزيقية الراقية . فعندما قال « كانت » بأن الوجود هو ذلك الشيء الموضوع ، فمن المحتمل انه قدم ركيزة للفلسفة الوضعية عند شيلنج ولما يمكننا ان نسميه التجريبية الاسمى ، وهناك تجريبية باطنية (تجريبية شلنج) التي تبحث لكي تبين لنا شروط — ودعنا لا نقول امكانية — حقيقة التجربة . وهناك التجريبية المتطرفة radical empiricism عند جيمس التي تأخذ بالعلاقات كما تأخذ بالحدود. وهناك حتى امكانية واقعية الماهيات essences مثل واقعية مور ورسل وهسرل وسانتايانا وهناك واقعية تأثيرية كما هناك فلسفات برجسونية وشيلرية. ان التجريبية الباطنية والمتطرفة واللاعقلية (لان كل هؤلاء تقريبا من الاشكال المختلفة للتجريبية يمكن ان تتحدد في مذهب واحد) هذه التجريبية مختلفة عن التجريبية التي في الكتب المدرسية . انها تسمح لنا ان نوحد ميول الفلاسفة المختلفين مثل باسكال وشيلنج وهيوم وشيلر وبوترو ورسل وبرجسون ونيتشة وروو وهويتهد وهيدجر .

مثل هذه التجريبية يمكن ان ترتبط بنقد فكرة الامكانية وبتأكيد عقيقة ما هو عارض وعارضية ما هو ضروري! ان اولية الجهة والحقيقة اللتين تجاهلها بعض فلاسفة الوجود الانساني ، ولكن كانت لم يفعل — يمكن ان تكونا رأيا من اراء هذه الفلسفة . فاذا ما قامت التجريبية في جزء منها على الملاحظة الباطنية ، فيمكن ان تحاول ان تشيد نظريات وجودية للمكان والزمان حيث يشعر فيها بالزمان كتوقع وتوقان وخوف واسى وندامة . ومن جهة اخرى نقول إن الزمان والمكان هما خيالات فحسب ، ان ما يوجد هو الاشياء من قبل ، والاشياء من بعد، والاشياء في نفس الوقت . فمن الاشياء ، وفي الحقيقة من العالم — من الاشياء الموضوعة الآن والموضوعة من بعد والموضوعة من قبل — من هذه الاشياء تستمد فكرة الزمان وفكرة المكان.

ومن ثم توجب علينا ان نتأدي الى الواقعية . ليس هناك تأمل الا على شيء ليس تأملا ، وليس هناك ادراك الا ما ليس مدركا. قبل ان افكر هناك شيء دائما — هو ما افكر فيه . انا افكر اذن هناك شيء مفكر فيه I think therefore something is thought ، وهذا صحيح كقولنا انا افكر اذن انا موجود I think , therfore I am ، وهذا هو ما افكر فيه موجود قبل ان افكر فيه .

وزيادة على ذلك ، فان اعضاء الحواس لا تشكل فحسب عن طريق العقل ، ولكن تصاغ ايضا عن طريق الاشياء .ودعنا نقول مع افلاطون ان العين تشبه ضوء الشمس ،وهذه التجريبية ستتفق مع فكرة افلاطون من ان الضوء يشكل العين . ولكن ، ونحن نؤول افلاطون بطريقة لا افلاطونية يجب ان نضيف — كما قلنا — ان الهيولى تشكل الصورة ، قبل ان تشكل الصورة الهيولى . وهكذا ، فنحن قريبون جداً لما اسماه الكسندر بالانبثاق ، وما اسماه هويتهد : Concrescence

لقد تحدث نوفالس عن المثالية السحرية. ولما كان قد تبع التراث الذي نحدر من البرتوس ماجنوس والعرب منذ افلاطون ، حتى اكثر من ارسطو ، فقد وحد بعمق بين السحر والمثالية . وهذا لا يقل شرعية عن تشييد مثالية سحرية ، وقد عرف « ريد » بغموضه بهذا عندما تحدث عن سحر الادراك الحسي .

ومما لا شك فيه ان هذين الحدين ، المثالية والواقعية ، بعيدان عن الاقناع ، ويمكننا بالاحرى ان نقول — كما قال نوفالس نفسه — ان المثالية المتطرفة والواقعية المتطرفة متحدتان ، او ربما كان علينا ان نحلل انفسنا وراء وربما تحت الواقعية والمثالية ، ونعيش منكرين كل المذاهب التي هي فحسب وجهات نظر لشيء لا يمكن ان يكون وجهة نظر .

ترجما عن الانجليزية

القاهرة — **مجاهد عبد المنعم مجاهد**

بعض سلاسل

لجنة التأليف المدرسي

بيروت

•

المروج : سلسلة كتب حديثة في القراءة

ستة اجزاء

الجديد في دروس الحساب: سلسلة كتب حديثة في الرياضيات

خمسة اجزاء

الجديد في قواعد اللغة العربية: سلسلة كتب حديثة في القواعد

اربعة اجزاء